محمود درويش ومسؤولية الحرف

بقلم عمر السّاريسي

يستطيع القارىء لمحمود درويش ان يخرج بصورة متكاملة عن مسؤولية الكلمة وواجب الحرف في هذا العصر الذي ينتضي فيه كل فرد في الامة اداته وسلاحه ليحافظ على النوع الانساني والحضارة المشتركة عامة وعلى وجوده وقوميته خاصة .

- ١ -

فاذا نظر محمود درويش الى الوراء في ادبنا العربي القديم وجد ان الحرف لم يتوهج فيقدم للمجتمع خدمة ما لانه خارج من القاموس الذي يحوي آلاف المفردات المهملة او المماتة :

آه .. هل ادركت قبل اليوم
ان الحرف في القاموس
يا حبي ، بليد
كيف تحيا كل هذي الكلمات ؟
كيف تنمو ؟
كيف تكبر ؟
نحن ما زلنا نغذيها دموع الذكريات
واستعارات .. وسكر !

ليس هذا فقط ، وانما يجد ان الميادين التي قيل فيها الشعر لم تسجل قربا من النفس او تترجم الما فيها او آمالا عامة منشودة بقدر ما كانت فارغة من المحتوى

تدور في حلقات قديمة مملة :

امس ، غنينا لنجم فوق غيمه
ولبدر قرب نجمه
وانغمسنا في البكاء !
امس عاتبنا الدوالي والقمر
والليالي والقدر
وتوددنا النساء
دقت الساعة والخيّام يسكر
وعلى وقع اغانيه المخدّر
قد ظللنا بؤساء !

واذن فانه يقرر ان يستبدل هذه الاشياء التي يسميها اساطير باشعار نافعة تتحول في ايدي الفلاحين والعمال والمقاتلين الى ادوات سحرية فعالة :

وليكن ...
لا بد لي ان ارفض الموت
وان كانت اساطيري تموت
لا بد لي ان ارفض الورد الذي يأتي من القاموس
او ديوان شعر
ينبت الورد على ساعد فلاح
وفي قبضة عامل
ينبت الورد على جرح مقاتل
وعلى جبهة صخر

وواضح ان « الفلاح » و « العامل » و « المقاتل » لم تعش مع عصورنا الادبية السابقة بمدلولاتها الحاضرة ، وهذا لا يغير من رأي محمود درويش فيها .

- ٢ -

واذا نظر هذا الشاعر البصير الى الكثرة من شعراء العصر الذين يملأون اعمدة الصحف والمجلات خرج لنا بنظرة ناقدة نافذة ، لا تكاد تخرج عن شيوخ النقاد التزاما

وبعد نظر وتوجيها ، انه يراهم يتأفقون في مظاهرهم ويتفننون في ملابسهم بحيث تبدو عصرية صارخة :

ربطة العنق ، وغليون ، وتزيين الثياب
هي اكفان صغار الشعراء
فاترك الشعر الى معهد تجميل الشباب
ان حقل الشعر كدح وعناء !

او يراهم يقصرون اشعارهم على رضى من هم على شاكلتهم ونوازعهم لا اكثر ولا اقل :

لو كانت هذي الكلمات
احد الشعراء يقول :
لو سرّت اشعاري خلاني
واغاظت اعدائي
فانا شاعر ... وانا سأقول !

ويصرّح بأن اشعارهم ستضيع سدى ، وان جهودهم ستتفرق عبثا اذا هم لم ينزلوا بها الى مستوى « البسطاء » من الناس :

قصائدنا بلا لون بلا طعم بلا صوت !
اذا لم تحمل المصباح من بيت الى بيت !
وان لم يفهم البسطا معانيها

فاولى ان نذرّيها ونخلد نحن للصمت !!!!

واذا نظرنا نحن الى هذا النقد وجدنا انه ينبطق اشد انطباق على كثير من شعرائنا العرب خارج الارض المحتلة في فترة ما قبل النكسة وما بعدها من هؤلاء الكثيرين الذين يلفعون اشعارهم بالغموض والرموز التي تبعدهم عن بؤس الواقع وناره وهمومه .

ـ ٣ ـ

وهنا يتساءل القارىء فيما يريده محمود درويش من الشعراء بعد ان رفض الدور الذي يأتي من القاموس ، وبعد ان اتهم زملاءه المعاصرين بالمعاصرة في الملابس فقط ، انه يريد منهم روحا جديدة تنهض بكل اعباء الامة ، وتسجل كل انباض الجماهير ، انه يقول « لا بد لي .. لا بد للشاعر من نخب جديد » ، انه يريد من شعراء العصر عصر الذرة ان يرتفعوا في الخلق الى منزلة الايحاءات العظيمة المنسوبة الى الانبياء !

يا رفاقي الشعراء
نحن في دنيا جديدة
مات ما فات ، فمن يكتب قصيدة
في زمان الريح والذرة
يخلق انبياء !

هذا من حيث ما يجب ان يحمله الشعر الحديث من بذور الاصلاح والفاعلية الاجتماعية « بحيث يفهم البسطا معانيها » لانها منهم مستوحاة ومن همومهم نابعة واليهم يجب ان تعود وتوجه ، كما يفهم من محاورة بسيطة يجريها الشاعر مع واحد من مواطنيه :

مهنتي يا عم ؟ ـ تأليف كلام وقصائد
اجرتي ؟ ـ لا اجر لي الا رضاك
لا تفك الحرف ؟ عفوا ، فالجرائد
والاناشيد ... صداك !

وينبغي ان تكون على جانب من القرب والجودة بحيث يسهل تناولها واستيعابها :

اجمل الاشعار ما يحفظه عن ظهر قلب
كل قارىء
فاذا لم يشرب الناس اناشيدك شرب
قل ، أنا وحدي خاطىء .

وينبغي ان تتحول الى ورود بين ايدي الفلاحين وعلى جروح المقاتلين وقبضات العاملين كما ذكر في مقطوعة سابقة ، وهنا يصر محمود درويش على هذه الخدمات ان تقدمها الاشعار لانه يكررها اكثر من مرة :

لو كانت هذي الاشعار
ازميلا في قبضة كادح
قنبلة في كف مكافح
لو كانت هذي الاشعار
لو كانت هذي الكلمات
محراثا بين يدي فلاح
وقميصا او بابا او مفتاح !

المهم ان تترجم الى شيء ما ينتفع منه المواطنون في حياتهم الاجتماعية ، لا ان تبقى تسليات فردية لا تلذ الا اصحابها المعزولين .

اما من حيث ما يجب ان يحمله الشعر الحديث من المسؤولية النضالية فهو الميدان الثاني الرئيسي الذي يطالب محمود درويش ان يدخله الشعر ويشارك فيه ، وهو الامر نفسه الذي نجد انه يتحمله ويكابد من اجله باصرار واقتناع :

سأغني ، وليكن منبر اشعاري مشانق
وعلى الناس سلام !

ويعلن ايمانه الذي لا يتزعزع بالحرف وجدواه حتى لو اوصله الى الهلاك :

اطعمت للريح ابياتي وزخرفها ان لم تكن كسيوف النار قافيتي
آمنت بالحرف .. اما ميتا عدما او ناصبا لعدوي حبل مشنقة
آمنت بالحرف نارا لا يضير اذا كنت الرماد انا ..او كان طاغيتي

ذلك لان الجهاد بالشعر والاستشهاد عليه هو الخلود بعينه :

فان سقطت وكفي رافع قلمي سيكتب الناس فوق القبر «لم يمت»!

وبذلك يستطيع الشاعر ان يساهم في ثورة التحرير الوطنية وفي نهضة البناء الاجتماعية ويستطيع ان يماشي الزمن ويحيي الشعر والكلمة في عصر الريح في عصر الذرة .

الزرقاء ـ الاردن

عمر الساريسي